بين تشاؤم العبقري.. والتشاؤل الواقعي!

العبقري أكثر النّاس تشاؤماً في الحياة، ولعلَّ الله خلق العباقرة متشائمين، أو لعلّ العبقرية هي مصدر التشاؤم وسببه:

الثابت ان أفذاذ العلماء والشعراء والكتّاب والفنانين وأمثالهم، يميلون إلى التشاؤم، ميلاً غريباً لا يحسن تحليله إلا الفلاسفة وعلماء النفس.

ليس التشاؤم حديث العهد في الشعر العربي فقد ولد معه قبل الإسلام بمئات السنين ولا يزال حتى اليوم يماشيه ويغذّيه، فما الشنفرى والحطيئة ولبيد وابن الرومي والمتنبي والمعري والمعتمد آخر ملوك اشبيليا وحافظ إبراهيم سوى حلقات قليلة من سلسلة الشعراء المتشائمين المنبرمين من الوجود، الثائرين على الحياة، ومَن تصفّح سيرة حياتهم ومجموعات آثارهم يسلّم بأن عدم التوفيق ومعاكسة الدهر لهم من أسباب تشاؤمهم.

كل ما في الكون يدعو إلى التشاؤم، فالكذب والغدر والرياء والاضطهاد والظلم والاستعباد، كل هذا من مقتضيات المدنية العصرية الشوهاء حتى الساعة وعلى الرغم من بعض المظاهر هنا وهناك. وما نراه من صدق ووفاء ورفق ورحمة وعدل ليس إلّا نباتاً صغيراً يحجب عنه الشجر العالي نور الشمس ويمتص من حوله المواد الغذائية من الأرض فيخنقه في مهده. فهل الإنسان، كما قال روسو، يولد طاهراً ثم لا يلبث أن يدبّ فيه الفساد والفساد متغلغل متأصل في كل محيط ولو بدرجات؟ ومَن ماشى التيار الجارف ووافق المجتمع على مبادئه المعوجة وغايته التي تأباها كل نفس تطمح إلى الكمال الإنساني وجد نفسه مرتاحاً ورأى الكون جنةً ونعيماً. أما مَن قاوم هذا التيار وأبى الإندماج فيه واجتهد في أن يحوّل مجراه، عدّه النّاس مجنوناً - والفلسفة نوع من الجنون - ورأى نفسه غريباً بين أهله وجيرانه فيثور على المجتمع ويستعذب الموت الذي ينزع الروح من الجسد ويعيدها الى خالقها حيث تنعم بالحرية التي خُلقت لها وتصل إلى الكمال الذي طلبته ولم تقف له على أثر في العالم، وقد يتحوّل العلم الذي هو نور وُجد لرقيّ البشر، عن غايته وأصبح وسيلة للخراب والتدبير وزيادة الشقاء.

خبرتُ شخصياً بين الشرق والغرب، ان مدينة الغرب المستندة إلى المادة تحتاج إلى كثير من روحانية الشرق، بل ان بعضهم يذهب إلى أبعد من هذا المدى. ويقول ان الحياة الفطرية أسلم للبشر وأكمل. هذا ما كتبته خصوصاً في كتابي «بين المادة والروح» الذي نقلته إلى لغة موليير أيضاً اعتبرت فيه ان كبار فلاسفة الغرب يحبذون هذه الفكرة بعد الدرس والتمحيص ويضعون عنها المؤلفات الوافرة فيتسارع الممثلون إلى الاهتمام بها وتتسابق المكتبات ودور السينما فتعرضها في جميع أنحاء العالم.

في حلي وترحالي شرقاً وغرباً كسفير سلام، قابلت نفسية الأمم «المتوحشة» والأمم «المتحضّرة». في رجال الاسكيمو أو شبه صحراء الأردن، طيبُ قلب وسلامة نفس وحُب ضيافة وعطف على الغريب، وفي جماعة الغربيين الأنانية والضغينة والشره والطمع واللؤم مع انهم أساساً رسل نور وعلم وهدى الى أمم أخرى!

الحداثة الغربية زادت بلايا الإنسانية وجعلتها تقتسم الأرض، ان العودة بالبشرية إلى الحياة الفطرية ولو بالحد الأدنى، أفضل من المدنية الحديثة الملتبسة في كثير من الأحايين.

الإنسان المبدع يختبر المعاناة أكثر من سواه، ومن هنا لفظة «كلم» في «الكلمة»! يعرف الحياة الحقة هنا قبل هناك فيتشاءم. والمبدع المتشائم المترفّع عن المادة حتى إذا توافرت لديه، هو الحلقة المفقودة بين الأرض والسماء (راجع كتابي «بين الأرض والسماء»). وما المبدع الحق سوى هذه الحلقة التي تجعلنا أقل تفاؤلاً أو أقل تشاؤماً، أي مُتشائلين! فمن لتشاؤلنا المنشود هذا؟!

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه